أثر الرافد الترجمي في تشكيل شخصية الطفل

رشيد عبد الخالق
جامعة وهران1- الجزائر -
rachid.tlemcen@hotmail.fr

ملخص:
لماذا الاهتمام بالطفل إلى هذه الدرجة؟ لأنّه، بكل بساطة، يمثل المستقبل، فقد قيل: "من كسب الطفل كسب المستقبل"؛ ذلك أنّ حوادث الطفولة واتجاهات النمو في السنين الباكرة من العمر تترك آثارا عميقة في مستقبل الطفل، أي في الرجل الذي سيعتمد عليه في تشييد البلاد وتسيير شؤون العباد.

فإذا كانت للطفل هذه الأهمية البالغة الخطورة، حقّ لنا أن نتساءل مبدئيا عمّن هو الطفل؟ هذا المخلوق الذي شغل الورى وملأ الدّنا، وأثار انتباه العلماء والمصلحين على اختلاف مشاربهم وتنوّع ثقافاتهم على مرّ الأزمنة وتعاقب العصور.

كلمات مفتاحية: ترجمة؛ طفل؛ ثقافة؛ أدب؛ رافد.

1- السمات الأساسية للطفل:

إن المتصفح للكتب التي تعالج سيكولوجية الطفل يصطدم بتعارف شتّى حاولت مقاربة ظاهرة الطفولة. والذي يمكن استنطاقه من هذه التعارف أنها تبقى دائما عرضة للنقد، من حيث أنها لا تستوعب مميّزات الطفولة كلها. ولم أجد، من جانبي، ما يشفي الغليل في هذه المسألة بالذات أفضل من تعريف "روسو"، فقد ذكر هذا المربّي الشهير، وهو في معرض نقده لمن رأى في الطفل مجرّد راشد صغير، أنّ الطفل "فرد ينمو ولمّا ينضج بعد، وأنّه يجب أن يُعامل وفقا لهذه الحقيقة".[1] والملفت للنظر في هذا التعريف أنه يركِّز على أخصّ ميزة في الطفل، والتي لا تتوفّر في غيره، وهي ميزة النمو.

من المسلّم به - فعلا- أنّ ما يميّز الطفل عن سائر الفئات العمرية من البشر، أنّه في نمو مستمر، وأنّ هذه النمو يبدأ من لحظة ولادته ويتواصل إلى غاية انتهاء فترة ما قبل المراهقة؛ أي إلى غاية 14 أو15 سنة من العمر. والواقع، كما ذكر بعض المختصّين في حقل التربية أنّ "السنين الخمس أو الستّ الأولى من الحياة هي التي تحدّد نمط شخصية الفرد. وبالرغم من أنهم يكونون قد بالغوا بعض الشيء، فإن ما من عالم نفس ينكر أهمية الطفولة". ثمّ يضيف قائلا: "إنّ هناك دلائل تشير إلى أنّ نصف البناء العقلي للفرد يتمّ خلال السنوات الثلاث الأولى من الحياة، وأنّ سنين ما قبل المدرسة وأعوام المدرسة الابتدائية تمثّل الفترة التي يتسارع فيها النمو الجسدي والعقلي والاجتماعي، وأن العادات التي تتكوّن أثناء هذه الفترة يصعب تغييرها في فترات النمو التالية"[2].

المستفاد من هذه المعاينة التي لا يكاد يختلف حولها علماء النفس الطفلي إلاّ في بعض التفاصيل، أن الطفل يستكمل معظم مناحي نموّه مع نهاية مرحلة الطفولة، لاسيما النمو العقلي بمجالاته المختلفة: الذكاء والذاكرة والخيال والتفكير. وأنّ معالم الشخصية المستقبلية للطفل وسلوكاته ومواقفه ضمن المجتمع الذي يأويه، تتحدد في هذه الفترة الحاسمة من العمر.

والذي يمكن أن نستفيده من ناحية أخرى، أنّ هذا النمو، بقدر ما يكون سريعا ومستمرا، يكون أيضا شاملا متكاملا؛ فلا يمكن، في اعتبار المهتمين بسيكولوجية الطفل، أن نتعامل مع مظاهر النمو العقلي والانفعالي والاجتماعي على حده ونفصلها عن المظاهر الأخرى، لأنّ "الفرد ينمو بشكل جسم حي واحد، وبشكل شخصية كاملة لا مجزّأة، ولأنّ عناصر كيانه الانفعالية والاجتماعية والعقلية وغيرها تتداخل بعضها في البعض الآخر، ويعتمد بعضها على البعض الآخر، ويؤدّي بعضها إلى البعض الآخر".[3]

والمتفق عليه بين المشتغلين في حقل التربية أيضا أنّ الطفل لا ينمو من تلقاء نفسه، بل إنه ينمو بمقدار ما توفره له البيئة

الاجتماعية من عوامل التربية ومقوّماتها؛ وبمعنى آخر، فإنّ نمو الطفل هو نتيجة للتأثيرات المتفاعلة الموحَّدة لكل من البيئة والوراثة، وتعرف العملية التي يتحقق بها هذا النمو - عادة - بعملية النضج والتعلّم.

أمّا عملية النضج فيُقصد بها النمو الجسماني الطبيعي الذي يتحكّم فيه عاملان هما: الوراثة والتغذية المتوازنة، في حين تشمل عملية التعلّم كل ما من شأنه أن يؤدّي إلى تعديل سلوكات الطفل وفق ما يتماشى مع تطلّعات المجتمع. وكلتا العمليتين تتكاملان، ف "التعلّم الناجع يعتمد كثيرا على مستوى نضج المتعلم".[4] ولأجل ذلك يعتقد صاحب هذا الرأي أنّه من الواجب "أن تُبنى الفعاليات في المنهاج دائما على استعداد الطفل في أية مرحلة من مراحل عمره".[5]

وإذا كانت الاستعدادات تتحكم في نمو الطفل، فإنّه من الواجب أن نسجّل أيضا أنّ الطفل لا ينمو النموّ الصحيح بدون تلبية بعض حاجاته الأساسية، وعلى الخصوص:

- حاجته إلى الأمان.
- حاجته إلى الحبّ والحنان.
- حاجته إلى الاستقلال.
- حاجته إلى توكيد الذات، أو الحاجة إلى المكانة.

وغيرها من الحاجات التي لا مندوحة من تحقيقها إذا أردنا للطفل أن يتكيّف تكيّفا سويّا.[6]

2- مفهوم الثقافة ودورها في تنشئة الطفل:

إنّ الحديث عن تكيّف الطفل مع اتجاهات المجتمع وقيمه يؤدّي بنا حتما إلى الحديث عن الثقافة، لأنّ الثقافة بمفهومها الواسع هي حوصلة كل ما من شأنه أن يمنح المجتمع هويّة تميّزه عن غيره من المجتمعات دون أن تحول بينه وبين الانفتاح على المجتمعات الأخرى والتأثير فيها والتّأثر بها، ليحقق المجتمع بُعده الإنساني الشّامل.

وإذا خصّصنا الحديث بثقافة الطفل، أمكن القول في تعريفها بأنها "مجموع العلوم والفنون والآداب والمهارات والقيم التي يستطيع الطفل استيعابها وتمثّلها في كل مرحلة من مراحله العمرية الثلاث،[7] ويتمكن بواسطتها من توجيه سلوكه داخل المجتمع توجيها سليما".[8] وللثقافة بهذه الأبعاد أثرها الفاعل في توجيه نموّ الطفل في مناحيه المختلفة.

ولمّا كان للثقافة هذا الوزن في توجيه نمو الطفل والتأثير على شخصيته المستقبلية، اتّضح أنّه من الحكمة ألاّ نقدّم للطفل من الزاد الثقافي إلاّ ما ينسجم مع هويّة مجتمعه، وما من شأنه أن يحصّنه من تيارات التغريب وما شاكلها من آثار تعرُّضه لثقافة الغير، لاسيما إذا كانت لهذا الغير أهداف مُغرضة يسعى إلى تحقيقها.

ولأجل ذلك ينصح أن تقدّم للطفل العربي - مثلا- قصصا من التراث العربي بعد تنقيحها بما يتماشى مع نفسية الطفل، وما يتلاءم مع مستواه اللغوي، لأنّ تقديم التراث للأطفال يعني "مدّ الجسور بين الحقائق التاريخية وامتداداتها التراثية اللاّحقة واختراق الحاضر إلى الغد المشرق... فالتراث زاد أصيل لتنمية شخصية (الأطفال) وتكوين قدراتهم ليكونوا - بعدئذ - جديرين بحماية أنفسهم والدفاع عن المستقبل".[9]

ومن التراث أيضا الحكاية الشعبية، فهي أيضا صالحة لكي تقدم للأطفال، لأنّها ليست مجرّد حكاية للترفيه، بل هي أيضا مرآة للعصر وانعكاس لأفكار الشعب، وهي ذات أهداف إيجابية من حيث أنها تُسهم في غرس القيم النبيلة وتأصيلها والحثّ على الأخلاق الحميدة وتثمين العلاقات الاجتماعية.[10]

غير أنّ هذا التوجه الساعي إلى حماية الطفل وتوجيه نموّه الوجهة السليمة التي تجعل منه فردا منسجما مع مجتمعه، فاعلا فيه، غيورا على مكتسباته، لا يمنع البتة من أن نقدِّم له من الثقافات ما يكون له عونا لانفتاحه على ثقافة الآخر وتوسيع مداركه، لكي يتعرّف على الآخر ويتعوّد على الحوار معه تحقيقا لإنسانية الثقافة. وقد يُعتمد

في هذا المنحى على ترجمة الإنتاج الثقافي للآخرين، على أن يُراعى في هذه الترجمات ألاّ تجور على نفسية الطفل ولا تتعارض مع ثوابت أمّته. ومن الأفضل أن يتم التركيز على ترجمة الإنتاج الثقافي للأمم التي عُرفت بحرصها على نشر ثقافة المسالمة والتعاون والتشديد على القيم الإنسانية الخالدة.

وقد سعى بعض الباحثين، مدفوعين بغيرتهم على الطفل العربي، إلى حصر السمات التي يتوجب التركيز عليها لتنمية ثقافة الطفل في النقاط التالية:

- التعددية واجتناب الأحادية.
- مراعاة المراحل العمرية للطفل.
- الجمع بين التراث والمعاصرة.
- التكامل؛ بمعنى أن تضع أمامها حاجة الطفل العربي إلى النمو في مختلف مناحيه.
- الإيمان بحرية الطفل ورفض ما يجعله تابعا، أو تربيته على التبعيّة.[11]

ولنا في هذا المقام أن نتساءل عن المخاوف التي تراود البعض من ترك الطفل يتعامل مع ثقافة الغير دون مراقبة تمحِّص ما هو صالح مما هو طالح. فهل هي مخاوف في محلها، لاسيما إذا علمنا أن المستوى المعرفي للطفل لا يسمح له بالتعاطي مع ثقافة الغير إلا من خلال الإنتاج الأدبي؟ انطلاقا من هذه المعاينة ارتأينا أن نركز ما بقي من هذا البحث على تحليل أثر الرافد الترجمي من خلال الأدب الموجه للطفل.

3- الأدب الموجه للطفل والرافد الترجمي:

أ- مفهوم الأدب الموجه للأطفال:

من الصعب تعريف أدب الطفل تعريفا كافيا شافيا، تماما كما أنه من الصعب تعريف الطفل والطفولة. ولكن يمكن القول -عموما- أنه الإنتاج الأدبي المعدّ من قبل الكبار والموجه إلى الصغار ممن لهم

القدرة على إدراك ما يقرؤون والتفاعل معه، أو الذي يقرؤه الكبار على الصغار لتسليتهم، أو جلب النعاس لهم.

وقد ترجع صعوبة تحديد ماهية هذا الجنس الأدبي إلى أنه، وإلى تاريخ قريب، كان مهمّشا لا يحضى باعتراف المؤسسات الأدبية، بحيث بقي لزمن طويل محافظا على طابعه الشفوي، وكأنه إنتاج غير جدير بأن يثبت على الورق. وتشير بعض المراجع إلى أنّ مصطلح "أدب الطفل" لم يحض بالاعتراف الرسمي في اللغة الفرنسية إلا في سنة 1958، على أساس أنه أدب مهمش (littérature marginale).[12] وهو ما يفسر قلّة الدراسات النقدية التي أجريت حوله.

ويفضل بعض الدارسين أن يسموا هذا الجنس الأدبي "الأدب الموجه للأطفال" عوض أدب الأطفال، ومرجع ذلك إلى أن الأطفال الذين ينسب إليهم هذا الأدب لا يساهمون في أي مرحلة من مراحل إنتاجه، إذا ما استثنينا دورهم كمصدر إلهام لبعض القصص، بل ولا يشاركون في اختيار واقتناء ما يقرؤون حتى، فعادة ما يقع العبء في هذا المجال على الأولياء.[13]

ب- مفعول الأدب على الأطفال:

ولأنه أدب موجه للأطفال الذين يُفترض فيهم –خطأ- أنهم محدودون في قدراتهم الإدراكية والانفعالية، فقد تجرّأ كثير من الكتّاب، في عامنا العربي على الأقل، على الكتابة للطفل، متناسين أنّ الإقدام على مثل هذا العمل يحتاج إلى البحث في علم نفس الطفل، ومعايشة الأطفال للتعرُّف على حاجاتهم وميولهم واتجاهات الرأي عندهم. يقول أحد الباحثين المهتمّين بالترجمة للطفل: "للتأثير في الجمهور المستهدف يتوجب على المترجم (وعلى الكاتب أيضا) أن يصنع لنفسه صورة للطفل تتأسس - بطبيعة الحال- على الطفل الذي شكّل جزء من حياته فيما مضى، وعلى الأطفال من معارفه؛ وبمعنى آخر يجب عليه أن يتحوّل إلى طفل كي يفهم ويتواصل مع الأطفال المستهدفين".[14] ذلك أن الأطفال يملكون من القدرات العقلية، كالذكاء

والإدراك والتخيّل، ما يؤهلهم لتمييز الرديء من الجيّد وفقا لمقاييسهم، ومن ثم وجدنا أنّ القصص التي تجمع الخيال إلى الواقع هي أهم عند الطفل من القصص التي تقتصر على الخيال المجنّح الجامح، ذلك أن قلب الصغير "لا يريد أن يتعلّق بأشياء لا أصل لها في الواقع...لأنه يطلب الواقع عن طريق الخيال، ويبقى الواقع هو الأرض الصلبة لكلّ تطلّعات الطفولة وأحلامها... (وعليه) فإن القصص الناجحة حقا هي تلك التي تتحرّك في الواقع والخيال معا".[15]

ويبقى الأدب بأجناسه المختلفة، وبطرق تواصله المتعددة، أهم رافد لثقافة الطفل وأقوى مؤثر في خياله وتوسيع مداركه وإثارة عواطفه وانفعالاته، إذ إنّ الأطفال، كما يتبيّن من معاينة أحد نقاد الأدب الموجه للطفل، " شديدو التعلُّق بالقصص، فهم يستمعون إليها، أو يقرؤونها بشغف، ويحلّقون في أجوائها ويتجاوبون مع أبطالها ويتشبّعون بما فيها من أخيلة يتخطون من خلالها أجواءهم العادية، ويندمجون بأحداثها، ويتعايشون مع أفكارها، بخاصة وأنها تقودهم بلطف ورقة وسحر إلى الاتّجاه الذي تحمله".[16]

إنّ الذي يهمنا من هذه المعاينة هو هذا المفعول العجيب والتأثير القوي الذي تملكه القصة وتمارسه على الأطفال، فهم ينفعلون مع أبطالها لدرجة تقمّص شخصياتهم، ويتشرّبون أفكارها، وينقادوا إلى التوجّه الذي تنطوي عليه. وهاهنا مكمن الخطر، لأنّ "من خصائص الأدب المعدّ للأطفال أنه متأصِّل في ثقافة الكاتب، وأنه ينطوي على مرجعيات خاصة لهذه الثقافة".[17]

فإذا كانت القصّة الموجّهة للأطفال من إنتاج أبناء جلدتهم فالأمر يهون، لأنّ أفكار هؤلاء الكتاب تلتقي في خطوطها العامة، وفي أغلب الأحيان، مع منطلقات المجتمع وقيم الأمّة، فكيف سيكون الأمر إذا كانت القصة مترجمة؟ لا شكّ أنّ الأمر -هاهنا- يحتاج إلى تمحيص القصة قبل الإقدام على ترجمتها، لاسيما إذا كانت هذه القصة من تأليف كاتب ينتمي فكريا وعاطفيا إلى أمّة تسعى إلى فرض ثقافتها وقيمها على الآخرين، كما هو الشأن فيما يُعرف بالعولمة الثقافية التي

تحمل لواءها الولايات المتّحدة الأمريكية ومن يعضدها من الدول الغربية. فترجمة أدب الطفل في ضوء هذه المعطيات ودون تمحيص قد يجعل "الأدب المترجم وسيلة للتغريب، ذلك أن التغريب هو الهدف الأساس للاختراق الثقافي".[18]

إنّ أفضل ما يمكن أن نواجه به هذا الخطر، ولاسيما أنّ الأدب الموجّه للأطفال العرب يتشكّل بنسبة كبيرة من الأدب المترجم،[19] قد يُلخّص في أمرين اثنين هما:

- تنويع منابع أدب الطفل المعروض على الترجمة، والانفتاح على أدب الأمم التي تشاطرنا المبادئ والقيم الإنسانية نفسها، لأنّ حربها وحربنا واحدة، وهي التصدّي للعولمة ورفض السيطرة الثقافية والإيمان بالخصوصية الثقافية، شريطة أن تكون هذه الترجمات مباشرة؛ أي من لغتها الأصلية ودون اللجوء إلى الوساطة المتمثلة في الترجمة الإنجليزية.

- تشجيع الكتاب العرب على التأليف في أدب الطفل، مع مراعاة تحسين طرق الطبع والإخراج، ولما لا اللجوء إلى تدعيم الكتاب الموجه للطفل.

ومن السلبيات التي يمكن أن نسجلها على الأدب الموجه للطفل في الآونة الأخيرة في الغرب، والذي قد يترجم إلى اللغة العربية، عدم إحجام الكتّاب عن تناول الموضوعات الممنوعة والطابوهات في قصصهم، وهو ما يوجب على المترجم العربي أن يحذر منه، لأنّ مثل هذه الموضوعات قد تصدم الطفل في مشاعره وتُفسد أخلاقه وتجور على المبادئ والقيم التي نربيه عليها. كما أنه في إمكان بعض هذه الموضوعات، لاسيما المواقف الدمويّة المفزعة أن تنمّي مخاوف عجيبة عند الأطفال تؤثّر عليهم مدى الحياة.[20]

ومن سمات الأدب الموجه للطفل في بعض الإنتاج الغربي، لاسيما المصوّر منه، عرض بعض المفاهيم الخاطئة الناشئة عن الأوهام والخرافات. والمعروف عن الخرافات أنها لا تمتّ إلى الواقع بصلة، وإن وجدت فهي صلة واهية قليلة الارتباط بالحقيقة. وقد يتقبل

الأطفال هذه الخرافات من دون أن يرتابوا فيها فيكون لها الأثر السيئ والدائم على تفكيرهم وسلوكاتهم.[21]

والأمر نفسه يُسجّل أيضا على بعض القصص التي تعرض على الأطفال عوالم عجيبة وشخصيات غريبة ذات قدرات خيالية خارقة، كالتحليق في أقطار السماوات والأرض، ومسخ الإنسان، وما شابه ذلك من الخيال المجنِّح الذي لا يمتّ بأيّ صلة للواقع الذي من المفروض أن ينطلق منه الخيال ليعود إليه، كما هو الأمر في قصص الخيال العلمي مثلا.

ج- الموقف من الرافد الترجمي:

كيف سيكون موقفنا من الرافد الترجمي المتمثل في أدب الأطفال، وهل معنى ما سبق بسطه من سلبيات الأدب المترجم الموجه للأطفال أن نحجم عن الترجمة عن الغير؟

لا شكّ أنّ اتّخاذ مثل هذا الموقف أمر ساذج لا يصدر إلاّ ممّن ركنت نفسه إلى الانزواء بعيدا عن تأثيرات الحضارة، وهو مطلب مستحيل التحقيق في عالم متداخل المصالح.

إنّ للأدب المترجم الموجّه للطفل إيجابيات لا تعدّ ولا تُحصى، لعلّ أهمّها أنّ أدب الطفل المترجم يُسهم في توسيع أفق الطفل؛ فهو حين يُطالع قصصا تحيل على عادات وتقاليد وتاريخ ونضالات أمم أخرى، وحين يتفاعل مع مفاهيمها عن الكون والحياة ورؤيتها للمستقبل، وما إلى ذلك مما هو مادّة الأدب عموما، تنمو مداركه وتتوسّع معارفه ويزداد تفتّحا على العالم، فيُدرك بُعده الإنساني المؤسس على الائتلاف والاختلاف.

ولا شكّ أنّ ذلك كله سيُنمّي فيه روح الحرية والاستقلال الفكري، وقد يدفعه إلى ربط العلاقات مع أترابه من هذه الأمم، ليتبادل معهم الأفكار ويُبادلهم الأحاسيس الطيّبة، فتنشأ بينهم الصداقات وتبادل الزيارات التي قد تُسفر، في نهاية المطاف، على بناء علاقات وثيقة قد تبدّد ما يُخالج البعض من أفكار مسبقة عن الغير، وما يُراود البعض الآخر من أفكار عنصرية تُسمِّم العلاقات بين بني البشر.

خاتمة:

فكيف نضرب صفحا عن الأدب المترجم الموجّه للأطفال إن كان سيحقق هذه الأهداف أو بعضها على الأقل. فالأمر كله متعلّق بأن نحسن اختيار القصص والحكايات التي نقدمها للترجمة، وأن يدرك المترجم أنه يتوجه إلى أبناء جلدته ورجال المستقبل في أمّته، فلا يُقدِم على ترجمة ما قد يخدش مشاعرهم ويلوّث أفكارهم ويجور على عواطفهم، ويتصرف في ما يراه منافيا لقيم مجتمعه، فالمعلوم أنّه لا يُشترط في الترجمة أن تكون أمينة على الدوام، ثمّ هل هناك أمانة في الترجمة أصلا !؟

هوامش:

1- ويلس.ن.بوتر، التربية وسيكولوجية الطفل، تر: أديب يوسف، المكتبة الأموية، دمشق، 1958، ص156.

2- فاخر عاقل، علم النفس التربوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1980، ص114.

3- التربية وسيكولوجية الطفل، ص176.

4- المرجع نفسه، ص167.

5- المرجع نفسه، ص167.

6- ينظر: علم النفس التربوي، ص 95 و 96.

7- وهي: س ما قبل المدرسة (3 إلى 5 سنوات)، ومرحلة المدرسة الابتدائية (6 إلى 9 سنوات)، ومرحلة ما قبل المراهقة (إلى غاية 14 تقريبا)، مع بعض الاختلاف الطفيف بين المتخصصين في سيكولوجية الطفل.

8- سمر روحي فيصل، أدب الأطفال وثقافتهم (قراءة نقدية)، اتحاد الكتّاب العرب – دمشق، 1998، ص100.

9- نزار نجّار، في أدب الأطفال، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1994، ص26.

10- ينظر: المرجع نفسه، ص60.

11- ينظر: أدب الأطفال وثقافتهم (قراءة نقدية)، ص127، 128.

12- Marc Schwass, La traduction de la littérature enfantine, Analyse critique de la version française de The hobbit de J.R.R Tolkien – www.archivesdegondor.net.

13- Ibid.

14- Ibid.

15- في أدب الأطفال، ص16.

16- المرجع نفسه، ص40.

17- www.archivesdegondor.net

18- أدب الأطفال وثقافتهم (قراءة نقدية)، ص83.

19- المرجع نفسه، ص77.

20- ينظر على سبيل المثال: علم النفس التربوي، ص108.

21- ينظر: المرجع نفسه، ص261 و262.